تمييز العلماء

من المفكرين والخطباء

دروسٌ لفضيلة الشيخ:

أبي عبدالله محمد بن سعيد رسلان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد: فهذا درسٌ مَـنَّ الله تعالى على بإلقائه في مسجد ((الأنصار)) بمدينة أشمون، يوم الخميس الرابع والعشرين من المحرم لسنة سبع وعشرين وأربعمئةٍ وألف من هجرة النبي – صلى الله عليه وسلم – ، الموافق بقدر الله تعالى للثالث والعشرين من شهر فبراير لسنةِ ستٍّ وأربعين وألفين من ميلاد عبد الله ورسوله وكلمتهِ ألقاها إلى مريم وروحٍ منه، المسيح عيسى ابن مريم –صلَّى الله تعالى على نبينا وعليه وسلم.

وجهدي مبذولٌ دائماً – بحول الله وقوته – للتقريب بين لغة العِلم المنطوقة ولغتهِ المقروءةِ؛ وصُلاً للخلفِ بلغة السَّلف، وحفاظا على جلال العلم الموصول بتراثه؛ غير المبتوت من أصله.

وقد قام أخي الحبيب فضيلة الشيخ طه عبد المقصود عُبَيَّة، مُدَرِّسُ التاريخ الإسلامي في كلية دار العلوم جامعة القاهرة، بخدمة هذا الدرس [تمييز العلماء من المفكرين والخطباء] إعدادا لطبعه ونشره؛ فقام عليه – بعد تفريغه – ببذل الجهد، ضبطاً لمشكلِهِ، وتخريجاً لحديثهِ، وتفسيرا لغريبهِ، ورعاية لتنسيقهِ . وقد فعل ذلك – حفظه الله – محتسبا، مُحسناً ظنِّهِ بُملْقِيه، فله غُنْمُهُ، وعلى مُلْقيه غُرْمُهُ، والله يتجاوز عنا وعنه، وهو سبحانه يعفو عن كثير.

شكر الله تعالى لأخي الشيخ طه، وزاده علما وحلما، وتقبل الله منا ومنه، ومن سائر المسلمين صالح الأعمال.

وصلى الله على نبينا مُـحـمـد وعلى أبويه إبراهيم وإسماعيل، وعلى سائر الأنبياء والمُرسلين، وسلم تسليما. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتب : أبو عبدالله محمد بن سعيد بن رسلان

عفا الله عنه وعن والديه

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلل فلا هَادِيَ له، وأشهَدُ أن لا إله إلا الله وحدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أن مُحمداً عَبدُهُ ورَسُوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أما بَعدُ:

فإنَّ أصدق الحديثِ كتاب الله، وخيرَ الهَدي هَديُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشَرَّ الأمُور مُحدثاتها، وكلَّ مُحدّثةٍ بدعَة، وكُل بدعَةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

أمَّا بَعدُ:

فقد رَوَى الإمامُ عبدُ الرَّازقِ الصنعاني في (مُصنَّفِهِ) مَوْقوفاً عن سُلَيم بنِ قيسٍ الحَنظَلي، قال: خطَبَ عُمرُ بنُ الخطابِ - رضي الله عنه - فقال: ((إنَّ أخوفَ ما أتَخَوَّفُ عَليكُم بَعدِي أن يُؤخَذَ الرجلُ منكم البريء فَيُـؤْشَـرُ كما يُوشَـرُ الجَزُورُ، ويُشاطُ لحمُهُ كما يُشاطُ لحمُهَا، ويُقال: عاصٍ، وليس بعَاصٍ. قال :فقال عليٌّ - رضي الله عنه - وهو تحت المنبر: ومتى ذلك؟ ... يا أميرَ المُؤمنين! أَوَ بِمَا تشتَدُّ بهِ البليةُ، وتَظهَرُ الحَمِيَّةُ، وتُسبَى الذُّريَّـةُ، وتدقُّهُمُ الفتنُ كمَا تَدُقُّ الرَّحَى ثِفلهَا، وكمَا تَدُقُّ النَّارُ الحَطبَ؟ قال: ومتى ذلكَ يا عليُّ؟ قـال: إذا تـفُـقِّـهَ لغير الدِّين، وتـعُلِّمَ لغيرِ العَمَلِ، والتُمسَتِ الدنيا بعملِ الآخرة)).[1]

[1] المصنف لعبد الرازق الصنعاني (ج١١ ص٣٦٠)

وهذا الحديثُ أخرجَهُ أيضاً الحاكمُ في (المُستدرك)[1] ، من طريق عبد الرازق في (مصنفه)،وصحَّحَهُ الشيخ الإمامُ في(صحيح الترغيبِ والترهيب)[2]

صَعِدَ الإمامُ أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطَّابِ – رضي الله عنه – المنبرَ فقالَ :((إنَّ أخوفَ ما أتخوفُ عليكم بُعدي أن يُؤخَذَ الرجُلُ منكم البريء فيُؤَشَرُ كَمَا يُؤشَرُ الجَزُورُ)) ويُؤشَرُ، يعني: يُنشر بالمنشارِ أو ما أشبهَ، والجَزُورُ: الناقَةُ المَجزورة. أي: كما يُفعلُ بالناقةِ المَجزورة يُفعل بهِ، ((ويُشاطُ لحمُهُ)) شيَّطَ فُلانٌ اللحم: إذا دخَّنَهُ ولم يُنضِجه، يعني: كأنما يُدَخَّنُ ولا يُنضج . ((ويُقال: عَاصٍ، وليس بعَاصٍ. قال: فقال عليٌّ وهو تحت المنبر: ومتى ذلك يا أمير المؤمنين؟)) ... ثم لم ينتظر منه جواباً، وإنما سَألَ وأجَابَ في وقتٍ واحِدٍ رضوان الله عليه، ((قالَ عليٌّ: أوَ بِمَا تشتدُّ البَلِيَّةُ، وتظهَرُ الحميَّةُ، وتُسبَى الذُّريَّةُ، وتدُقُّهُمُ الفتنُ كمَا تَدقُّ الرَّحَى ثِفْلهَا)) الثِّفَالُ -بالكسر – هو ذلك الجلدُ الذي يُبسَطُ تحتَ رَحَى اليَدِ ليَقِي الطحِينَ من الترابِ، ((فتدقُّهم كمَا تدقُّ الرَّحَى ثِفلَهَا)) ، تدقُّهم دقَّ الرَّحى إذا كانت مُثَفَّلَةً – يعني: تحتها جلدٌ يقِي الطحينَ الترابَ؛ ولا تُثَفَّلُ – يعني: لا يُوضع تحت رَحَى اليدِ ثِفالٌ؛ أي جلدٌ – إلا عند الطحن، ولذلك يقول – رضي الله عنه :– ((وتدُقَّهُم الفتنُ كما تَدقُّ الرَّحَى ثِفلهَا)) تطحنهم طحنا، ((وكمَا تدق النار الحطبَ)) وهو أبلغُ إذ أنها إذا ما اشتعلت في الحطبِ تُفنِيهِ، كما هوَ معلوم، وتحوِّلُهُ رَمادًا.

((قال: ومتى ذلك يا عليُّ؟)) أي: كُلُّ ما مَرَّ من تلكَ الخُطوبِ والمحن والكروبِ والإحن، وهذهِ الأمُور التي تقعُ في أمَّةِ مُحمدٍ – صلى الله عليه وسلم –، كُلُّ هذهِ الأمُور مُرتَّبَةٌ على مَا سيأتي ممَّا هُو مجهول، لماذا تظهَرُ هذهِ الأمُورُ كلُّهَا في أمَّةِ الرسَّول – صلى الله عليه وسلم –؟ .... ((ومتى ذلكَ يا عليُّ؟)) قال :((إذا تُفُقِّهَ لغير الدين، وتُعُلِّمَ لغير

---

[1] المستدرك على الصحيحين (ج٤ ص٤٩٨) (رقم ٨٣٩٢)

[2] صحيح الترغيب والترهيب للشيخ محمد ناصر الألباني (ج١ ص٤٨) حديث رقم (١٠٧) – ط. المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م

العمل، والتُمسَتِ الدنيا بعمَل الآخـرة))، أي: إذا تفقَّه الناسُ في دين الله تبارك وتعالى، لا للدين، وإنما للدنيا، وللحظِّ الخسيس، وتعلموا العلمَ لا ليعمَلُوا به، وإنمَا ليرتفعُوا به عَلى رُءوس الخَلقِ، ويُحصِّلُوا بالعلم المناصبَ والأموَال ... ((وتعلموا لغير العمل، والتُمسَتِ الدنيا بعمل الآخرة)) إذا كان ذلكَ: وقعت الفتنُ، ووقعت تلكَ الخُطُوبُ، وتمت تلك الكُروبُ في أمَّةِ الحبيب المحبوب - صلى الله عليه وسلم-.

فانظر مكمن العِلَّةِ، وكيفَ أتى بِهِ أميرُ المُؤمنينَ علىٌّ، ولم يُراجعهُ فيه عُمر رضوان الله عليه، وكان على المنبر؛ يعني بمَحضَـرٍ من الأصحَابِ عليهم الرضوان، فهو إجماعٌ منهم؛ إذ لم يُراجعهُ في ذلك أحدٌ رضوان الله عليهم جميعا.

ذكَرَ الذهبيُّ في (السيَرِ) عن عبدِ الرحمن بن مهديٍّ عن طالُوت قال: سمعتُ إبراهيمَ بن أدهَم يَقولُ :((ما صدّق اللهَ عبدٌ أحَبَّ الشُّهرَةَ))١.

قال الذهبيُّ مُعلقاً :((علامةُ المُخلصِ الذي قد يُحبُّ شُهرةً ولا يشعُرُ بهَا)) يعني: المخلصُ ربما أحبَّ الشهرة ولم يُنَقِّب في ذات قلبهِ، ولم يطلع على ما في ضميرهِ، فكان مُحباً للشهرةِ وهو لا يَعلمُ ... ((علامةُ المخلص الذي قد يُحبُّ شهرةً ولا يشعر بها أنَّهُ إذا عُوتبَ في ذلك لا يَحردُ)) كمَا يَحرَدُ البَغلُ٢، وإنما ينقادُ ((ولا يبرِّئُ نفسَهُ، بل يعترف ويقول: رحِمَ الله مَن أهْدَى إلَيَّ عيوبي، ولا يكون مُعجباً بنفسه، لا يشعر بعيوبها، بل لا يشعر أنه لا يشعرُ، فإنَّ هذا داءٌ مُزمنٌ))٣، قَلَّ مَن تَخلَّصَ منهُ إلا مَن رَحِمَ ربك، فاللهم ارحمنا برحمتك وأنت أرحمُ الراحمين.

---

١ سير أعلام النبلاء (ج٧ ص٣٩٣).

٢ حَردَ -بكسر الراء وفتحها - يحرِدُ، حَرْدًا: ((غضب)). ورجل حَردٌ، وحاردٌ وحردانٌ: ((غضبان))، ورجل حَرَدَ، يَحرِدُ حُرُودًا، أي: تنحى واعتزل (لسان العرب: حرد).

٣ سير أعلام النبلاء (ج٧ ص٣٩٣).

وعن عبدِ الله بن مسعُودٍ – رضي الله عنه – قال :((كيف بكُم إذا لبستكم فتنةٌ؟ يَربُوا فيها الصغيرُ، ويَهرَمُ فيهَا الكبيرُ، وتُتَّخَذُ سُنَّةً، فإن غُيِّرت يومًا قيل: هذا مُنكرٌ. قيل: ومتى ذلك؟ قال: إذا قَلَّتْ أُمناؤُكم، وكثُرت أُمَراؤُكم، وقَلَّت فُقهاؤُكم، وكثُرت قُرَّاؤُكم، وتُفُقِّهَ لغير الدينِ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة))[1].

قال :((كيف بكم إذا لبستكم فتنة؟)) غشيتكم وأحاطت بكم كما يُحيط الثوب بلابسه ...((يَربُوا)) : يَنمُوا ويَزيدُ فيها الصغير، ((ويهرمُ فيها الكبيرُ)) :هَرِمَ يَهْرَمُ، إذا شاخَ وتقدمت بِهِ السِنُّ ... ((وتتَّخَذُ سُنَّة))، أي: منهاجا وطريقةً، ...((فإن غُيرت يومًا)) أيْ: غُيرت هذه الفتنةُ، وهذه المحنةُ التي تَلبِسَهُم وتُحيطُ بهم كما يُحيط الثوب بلابسهِ :((قيل: هذا مُنكرٌ)) يعني: هذا معيب قبيحٌ .((قيل: ومتى ذلك؟)) يعني: كل ما مَرَّ؛ فتنةٌ تلبس الناسَ، يَربُوا فيها الصغيرُ، ويَهرمُ فيها الكبيرُ، وتتَّخَذُ سُنَّةً، فإذا غُيرت يومًا قيل: هذا منكرٌ .... كُلُّ هذا متى؟ ... مؤَسَّسٌ على ما هُو آتٍ، مالذي هو آت؟ .... ((قال: إذا قلَّت أمناؤُكم، وكثرت أمراؤُكم، وقلتْ فقهاؤُكم)) .... و((الفقهاء)) في لسان الصحابة – رضي الله عنهم – سِوَى هيَ في عُرْفِ الفقهاء المتأخرين ،،،، فأمَّا ((الفقيهُ))عندهُم فهُوَ المشتَغِلُ بفَهمِ النصُوصِ، وهوَ عالمٌ عارفُ بمسالك الشريعة ودروبها وطُرُقِها ومسَالكِهَا .

قال :((وكثرت قُرَّاؤُكم)) أي: الذين يُحسنون القراءة تجويدا وآداءً .... ((وتفُقِّهَ لغير الدين، والتمست الدنيا بعمل الآخرة)) ... حينئذٍ تلبسكُم فتنةٌ يكبر فيها الصغير، ويهرمُ فيها الكبيرُ، وتتَّخَذُ سُنَّةً وطريقا متَّبعًا وسبيلا مسلوكاً، حتى إذا ما غُيرت قيل: هذا منكرٌ، وهذا معيب وباطلٌ ... ((وتفقه لغير الدين، والتُمسَتِ الدنيا بعمَل الآخِرةِ)) يعني: يجعل الدين وسيلة إلى الدنيا.

---

[1] رواه الدارمي في سننه (١/ ٧٥-٧٦)، وعبد الرازق في المصنف (١١/ ٣٥٩). وصحح الشيخ الألباني إسناد الدارمي في صحيح الترغيب والترهيب (رقم ١٠٦) (ص٤٧-٤٨)

وقد قيل لبعض الصالحينَ مِن العُلماءِ المتقدِّمينَ: ((مَن السِّفْلةُ؟)) أي :من هُم أولئك الذين هم في الخلقِ لا يُساوي الواحد منهم وزنه تُراباً؟ .. قال: ((الذين يأكلون الدنيا بالدين)).

السِّفلةُ لم يُرجعها إلى نسب وضيع، ولا إلى شرفٍ مَضيع، ولا إلى مالٍ مسلوبٍ، ولا إلى فقر حاضِرٍ، وإنما قال: ((السِّفْلَةُ الذين يأكلون الدنيا بالدين)).

وقد عقدَ الخطيب البغداديُّ – رحمه الله – في كتابه (الجامع في أخلاق الراوي وآداب السامع) باباً في ((بيان النيةِ في طلب الحديث))، فقال: رحمه الله :((يجب على طالبِ الحديث أن يُخلصَ نيتهُ في طلبِه، ويكون قَصدُهُ بذلك وجه الله تبارك وتعالى)) .وليَحذَر أن يَجْعَلَ الحديث سبيلاً إلى نَيلِ الأغراضِ، وطريقاً إلى أخذِ الأعوَاض، فقد جاء الوعيدُ لمن ابتغى ذلك بِعِلمِه، واتخذ العِلمَ إليه سبيلاً.

قال :((وليتقِ المفاخرةَ والمبَاهاةَ به، وأن لا يكونَ قصْدُهُ في طلب الحديث نيل الرئاسةِ، واتخاذَ الأتباعِ، وعَقْدَ المَجالسِ، فإنَّ الآفـةَ الدَّاخِلةَ على العُلمَاءِ أكثرُهَا من هذا الوجهِ)) ... من اتخاذِ الأتباع، وعقدَ المجالس، ...((الآفة الداخلة على العلماءِ أكثرُها من هذا الوجه)).

قال ... : ((وليجعلْ حفظَهُ للحديث حفظ رعايةٍ، لا حفظَ رواية، فإنَّ رُواةَ العلومِ كثيرةٌ، ورُعاتَها قليلٌ، ورُبَّ حاضرٍ كالغائب، وعالم كالجاهل، وحامل للحديث ليس معهُ منه شيءٍ؛ إذ كانَ في إطِّراحه لحُكمه بمنزلة الذاهب عن معرفته وعلمه)) ... فلم يُفِدْ منه شيئاً، وإنما زادت حُجَّةُ الله عليه به.

قال :((وليعلم أن الله تعالى سائلُهُ عن علْمِهِ فيمَ طلبَهُ، ومُجازيهِ على عمله به)) [1].

---

[1] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (ج١ ص٨١، ٨٥، ٨٧، ٨٨) {ط .مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ، = ١٩٨٣م. بتحقيق الدكتور محمد الطحان}

وطلبُ الدنيا بالآخرة عقوبةٌ في الدنيا مُعَجَّلَة، ومَحْقٌ لبركة العُمر، وذهابٌ لخيره، وفي الآخرة عذاب شديد وعقاب أليم.

قال الحسنُ: ((عقوبةُ العالِمِ موتُ القلب)). قيل له: وما موتُ القلب؟ قال: ((طلب الدنيا بعملِ الآخِرَة))[1]

وقال جعفرُ بن مُحمد: ((إذا رأيتمُ العالمَ مُحباً لدنياه فاتهموه على دينكم، فإن كلَّ مُحبٍّ لشيء يحوطُ ما أحبَّه)) [2].

وقال سفيان الثوري: ((إنما يُتعَلَّمُ العلمُ ليُتَّقى بِهِ اللهُ، وإنَّمَا فُضِّـلَ العِلمُ على غيره؛ لأنه يُتَّقى بِهِ الله)) [3].

وقال أيضا: ((زَيِّنُوا العِلمَ ولا تَزَيَّنُوا به)) [4].

وقال الإمام الذهبيُّ - عليه الرحمه - في ترجمة هشامٍ الدَّستُوائيِّ: هو الحافظُ الحُجَّةُ الإمام الصادقُ أبُو بكر هشامُ بن عبدِ اللهِ البصريُّ الرَّبَعيُّ، صاحبُ الثيابِ الدَّستُوائيَّةِ، (المتوفى سنة ١٥٤هـ). كان يَتَّجِرُ في القماش الذي يُجْلبُ مِن ((دستُوا))، ودَسْتُوا: بُليدَةٌ - تصغيرُ بلدة - من أعمال الأهوازِ، فنُسِبَ إليها. قالَ عَوْنُ ابنُ عُمارة [5]: سمعتُ هشاماً

---

[1] انظر: ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر القرطبي (ص٢٧٢) {ط. دار الكتب الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م}

[2] ذكره ابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (ص٢٧٣)

[3] رواه ابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (ص٢٧١)

[4] أخرجه ابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (ص٢٧١)، ورواه الخطيب في ((الجامع لأخلاق الراوي)) (ج١ ص٩٤)، وذكره الذهبي في ((سير أعلام النبلاء)) (ج٧ ص٢٤٤)، بلفظ ((زينوا العلم والحديث بأنفسكم، ولا تزينوا به)).

[5] عون بن عمارة العبدي القيسي، أبو محمد البصري. ضعيف الحديث. مات سنة (٢١٢هـ). (راجه تهذيب التهذيب لابن حجر ج٨ ص١٧٣).

الدَّسْتُوائيَّ يقولُ: (وهو الذي قيل فيه: الإمامُ الحُجَّةُ العَلَمُ الصَّادِقُ ... إلى غير ذلك من أوصافهِ، رحمةُ الله عليهِ): ((واللهِ ما أستطيعُ أن أقول: إني ذهبتُ يوماً قطُّ أطلب الحديثَ أريد بهِ وَجهَ اللهِ تعالى)) [1].

لا يستطيع الإمام الدَّستُوائيُّأن يَجزمَ وهوَ الإمامُ العَلَمُ ويأتيهِ الناسُ من أقطارِ الأرضِ كلِّهَا يطلبُون علمَه، ويَعلُو بِهِ إسنادَهُم رحمةُ اللهِ عليه، ومع ذلك يقول: ((والله ما أستطيعُ أن أقولَ: إني ذهبتُ يوماً قطُّ أطلب الحديثَ أريدُ بهِ وجهَ اللهِ عز وجل)).

قال الذهبيُّ الإمامُ العلمُ – مُعَلِّقًا – : ((واللهِ ولا أنا، فقد كان السَّلفُ يطلبونَ العلمَ لله، فنَبُلُوا، وصارُوا أئمَّةً يُقتدى بِهِمُ، وطلبهُ قومٌ منهم أولا، لا لله، وحصَّلُوه، ثمَّ استفاقُوا وحاسبوا أنفسهم، فجرهُم العلمُ إلى الإخلاصِ في أثناءِ الطريق، كما قال مُجاهِدٌ وغيرهُ: ((طلبنا هذا العلمَ ومَا لنا كبيرُ نيَّة، ثم رزق اللهُ النيَّةَ بَعدُ)). وبعضهُم يقولُ: ((طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبَى العلمُ إلا أن يكونَ لله)) فهذا أيضا حسنٌ. ثم نشروه بنية صالحة. وقوم طلبوه بنيةٍ فاسِدَةٍ لأجل الدنيا، وليُثنَى عليهم، فلهم ما نَوَوْا، وتَرى هذا الضربَ (أي النوعَ) لم يستضيئُوا بنُور العِلمِ، ولا لهم وقع في النفوس، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العملِ، وإنما العَالِمُ مَن يَخشى الله تعالى. وقوم نالوا العلمَ ووَلُوا بِهِ المناصِبَ فظَلَمُوا، وتركُوا التقيُّدَ بالعِلمِ، وركبوا الكبائرَ والفواحشَ، فتبًّا لهُم، فما هَؤلاءِ بعُلماء. وبعضهم لم يتَّقِ اللهَ في علمِهِ، بل ركبَ الحيَلَ، وأفتَى بالرُّخَصِ، ورَوَى الشَّاذ من الأخبار، وبعضهُم اجترأ على الله ووضعَ الأحَاديثَ مكذوبَةً فهَتكَهُ الله، وذهبَ عِلمُه، وصارَ زادَهُ إلى النار (يعني صار هذا العلمُ المغشوش المدخولُ زادَهُ إلى النار) وهؤلاءِ الأقسام كلُّهُم روَوْا من العلمِ شيئاً كبيراً،

[1] سير أعلام النبلاء للذهبي (ج٧ ص١٥٢)

وتضلعوا منه في الجملة [1] فخلف مِن بعدِهم خلفٌ بان نقصهُم في العلم والعمل، (فلا عِلْمَ ولا عَمَل)، وتلاهُم قومٌ انتموا إلى العِلم في الظاهر، ولم يُتقِنُوا منهُ سِوى نزرْ يسير، أوْهَمُوا بهِ أنهم علماء فضلاءُ، ولمْ يَدرُ في أذهَانهم قط! أنهم يتقربون به إلى الله (والعلم لهم ذلك إلاَّ لأنهم ما رأوْا شيخًا يُقتدَى بهِ في العلم فصارُوا هَمجًا رَعَاعًا، غايةُ المدّرسِ منهم أن يحصِّل كتباً مثمَّنةً يخزُنُهَا، وينظُرُ فيهَا يَومًا مَا فَيصحِّفُ ما يُورِدُهُ ولا يقرِّرُه، فنسأل الله النجاة والعفو، كما قال بعضهم: ما أنا عَالمٌ ولا رأيت عالماً)) [2].

لا تحسَبنَّ هذا الذي قيلَ، قيلَ حديثًا، أو قيلَ على عهدِ الذهبيِّ فسمِعَه، وإنما هُوَ قديمٌ قديمٌ، فقد أكَبَّ واحدٌ من طُلاب الحسَنِ البَريِّ - رحمه الله - على يدِهِ يُريد أن يُقبلها، فمَنَعَهُ، فأرادَ أن يَحتجَّ عليهِ بالعلمِ، فقال: يا شيخَنَا! أليسَ رُخِّصَ لنا في تقبيلِ يدِ العَالمِ والوَالدِ والزوجَةِ والطفل الصغير، وغير ذلك؟ أوَلَيسَ قَد رُخِّصَ في تقبيلِ يدِ العَالم؟ قال الحَسَنُ: ((وهَل رأيتَ عالماً؟)).

قال الذهبي - رحمه الله - : ((قال الوَليدُ بنُ مسلمٍ: سألتُ الأوزاعيَّ [3] وسَعيدَ بنَ عبد العَزيزِ [4] وابن جُرَيجٍ [1] (هؤلاء الفحُول من علماءنا الأوائِلَ كالصُّمِّ الصِّلابِ؛ كالجبال

---

[1] تضلَّع الرجل: امتلأ ما بين أضلاعه شبعا ورياً (لسان العرب: ضلع) وتضلعوا من العلم: أخذوا منه بحظ كبير كما يأخذ الشارب والآكل حتى ترتفع أضلاعه، كما هي السنة إذا شرب الرجل من ماء زمزم حتى يتضلع بنيته.

[2] انتهى كلام الذهبي - رحمه الله من سير أعلام النبلاء (ج٧ ص١٥٢ - ١٥٣) .

[3] هو: عبد الرحمن بن عمرو بن يَحمُد، أبو عمر الأوزاعي الدمشقي، شيخ الاسلام (المتوفى ١٥٧هـ) كان رحمه الله كثير الاجتهاد في العبادة، ونعته الإمام مالك بقوله: ((الأوزاعي إمامٌ يُقتدى بِه)). وقال الخُربيي: ((كان أفضل أهل زمانه)). وقال الذهبي في ترجمته له: بأنه ((كان كبير الشأن)). وهو من أوائل مَن دَوَّنُوا العلم بالشام هو وابن جريج. وله محاسن وفضائل كثيرة (له ترجمة في سير أعلام النبلاء للذهبي ٧/ ١٠٧-١٣٤، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١/ ٨٤-٢١٩، تهذيب التهذيب لابن حجر ٦/ ٢٣٨-٢٤٢، حلية الأولياء لأبي نعيم ٦/ ١٣٥-١٤٩).

[4] هو: سعيد بن عبد العزيز بن أبي يحيى، أبو محمد التنوخي، الدمشقي، الإمام القدوة، مفتي دمشق (المتوفى ١٦٧هـ) قال عنه الإمام أحمد: ((ليس بالشام رجل أصح حديثا من سعيد بن عبد العزيز)). وقال الحاكم: ((سعيد بن عبد العزيز لأهل الشام كمالك لأهل المدينة؛ في التقدم والفقه والأمانة)). وكان الأوزاعي إذا سئل عن مسألة -وسعيد حاضر- قال: ((سلوا أبا محمد)). وكان رحمه

الراسيات الشامخات، تناطحُ السَّحابَ، بل تفوقُ السَحاب)... لَمن طلبتمُ العلم؟ كلهم يقول: لنفسي)) ؛ يعني: مِن أجلِ أن أتعلَّم فأزيلَ الجَهَالةَ، وأعْمَل بالذي عَلِمتُ، وأبُثُّ العِلمَ الذي تعَلَّمتُهُ وعملتُ بهِ في أمَّةِ مُحمد – صلى الله عليه وسلم، ولأدافع عن الشريعَة، ((كلُّهُم يقول: لنفسي، غيرَ ابن جُريج – وهُو مَن هُوَ – فإنه قالَ: طلبتُهُ للناسِ)) [٢].

عَلَّق الذهبيُّ – عليه الرحمة – على هذا القول بقوله: ((ما أحسَنَ الصِّدقَ! واليوم تسألُ الفقيه الغبيَّ: لمن طلبتَ العلمَ؟ فيُبادِرُ ويقول: طلبتهُ لله، ويكذبُ، إنما طلبهُ للدنيا، و يا قلَّةَ ما عرفَ منه)) [٣].

وقال الذهبي أيضا: قال أبو قطَنَ: سمِعتُ شُعبَةَ بن الحجَّاجِ يقول: ((ما شيءٌ أخوفُ عندي من أن يُدخلني النار من الحديث)). وشُعبةُ أمير المؤمنين في الحديث، كان لا يُشقُّ له غبار، وهو من أوائل النَّقَدَة الذين نقَدُوا الأخبارَ على الوجهِ حتى كان في ذلك متشددًا، عليه الرحمة.. شَعبة، وما شَعبةُ؟ وما أدراك ما شُعبة؟ شُعبةُ بن الحجاج أمير المؤمنين في الحديث [٤] يقول: ((ما شيءٌ أخوف عندي من أن يُدخلني النار من الحديث)).

الله كثير الصلاة بالليل، كثير البكاء من خشية الله. وكان إذا فاتته صلاة الجماعة بكى. وله فضائل كثيرة (له ترجمة في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/ ٤٢، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٨/ ٣٢-٣٨، تهذيب التهذيب لابن حجر ٤/ ٥٩).

[١] هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، الإمام العلامة، الحافظ، شيخ الحرم، أبو خالد، القرشي الأموي المكي، (المتوفي ١٥٠هـ). أول مَن دون العلم بمكة. قال عنه عبد الرازق الصنعاني: ((كنت إذا رأيت ابن جريج علمت أنه يخشى الله)). وقال عنه الإمام أحمد: ((كان من أوعية العلم)). وهو أعلم الناس بعلم عطاء بن أبي رباح –رحمه الله– (له ترجمة في: سير أعلام النبلاء للذهبي ج٦ ص٣٢٥-٣٣٦، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج١٠ ص٤٠٠، تهذيب التهذيب لابن حجر ج٦ ص٤٠٢-٤٠٦).

[٢] سير أعلام النبلاء (ج٦ ص٣٢٨).

[٣] سير أعلام النبلاء (ج٦ ص٣٢٨).

[٤] شعبة بن الحجاج بن الورد، الإمام الحافظ، أبو بسطام الأزدي، العتكي، عالم أهل البصرة وشيخها، أمير المؤمنين في الحديث (المتوفى سنة ١٦٠ هـ). كان إماما، ثبتا، حجة، ناقدا، جهبذا، صالحا، زاهدا، قانعا، سخيا، كثر الصلاة، رأسا في العلم والعمل، منقطع القرين، إمامٌ في الجرح والتعديل، وهو أول مَن جرَّح وعدَّل، ثم أخذ عنه هذا الشأن: يحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن، بن

وعنه قال: ((وددت أني وَقَّادُ حِمَامٍ ، وأني لم أعرف الحديثَ)) [1].

يقول: ((وَدِدْتُ أنب وقَّادُ حِمامٍ)) يعني: ذلك الذي يُشعِلُ النار لتسخين الماءِ في الحماماتِ العامَّةِ، وكانت في زمنِهِ، ((وأني لم أعرف الحديث)) يعني: حديث رسول الله ، في مسألة الطلب، وفي مسألة التعليم والتعَلُّم. وكلُّ ذلك يخافُ على نفسه من أن يُصيب نيته شيءٌ.

إنهم كانوا أهل إخلاصٍ، فرحمةُ اللهِ على تلك الأرواح الطاهرة.

يقولُ الذهبيُّ في التعليق على هذا الخبر: ((كلُّ مَن حَاقَقَ نفسَهُ في صحَّة نيَّتِهِ فب طلبِ العلمِ يَخافُ مِن مثلِ هذا، ويودُّ أن ينجُو كفافاً))، أي: لا لَهُ، ولا عَليْه.

وخُذ لك مثلاً مضروباً ذكرَهُ الخطيبُ البغداديُّ - عليه الرحمةُ - في كتابِهِ العظيم ((الكفاية))، وهو أوَّل خبر في ذلك الكتاب، يصفُ الحالَ في ذلك المثال، ووصلَ بالإسنادِ إلى أبي العباسِ أحمدِ بن عليٍّ الأبَّارِ [2] قالَ: قالَ: ((رأيتُ بالأهوازِ رجُلاً قد حَفَّ شاربَه))... ويبدو أنها كانت سِمَةً يومَئِذٍ عَلَى مَن أرادَ أن يكُون عالماً ومفتياً، ((وأظنهُ قد اشترى كتباً وتعَبَّأ للفُتيا)) ... وياللهِ لدقَّةِ اللفظِ الذي اختارَهُ عندَما قال: ((وتعبَّأ))..... ((وتعبَّأ للفُتيَا))، يعني جَمَعَ ملكات النفسِ كلَّهَا، وشحذَهَا فشَحَنَهَا، ثُمَّ جعلهَا كأنَّهَا مُعَبَّأةً في غِرَارَة - في جِوَال - يعني بذلك نفسَ ذلك الرجل.... ((رأيتُ بالأهْوَازِ رجُلاً قد حفَّ شاربَهُ، وأظنُّه قد اشترى كتباً وتعبَّأ للفُتيا، فذكرُوا أصحابَ الحديث في المجلس، فقالَ: ليسُوا بشيء،

مهدي، وطائفة. وكان سفيان الثوري يخضع له ويُجلُّه. وقال عنه الشافعي: ((لولا شعبة لما عُرف الحديث بالعراق)). وللعلماء ثناءٌ طويل عليه (راجع ترجمته في: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج٩ ص٢٥٥-٢٦٦، حلية الأولياء لأبي نعيم ج٧ ص١٤٤-٢٠٩، تهذب التهذيب لابن حجر ج٤ ص٣٣٨-٣٤٦، سير أعلام النبلاء ج٧ ص٢٠٢-٢٢٨).

[1] سير أعلام النبلاء (ج٧ ص٢١٣).

[2] أحمد بن علي بن مسلم، أبو العباس، الأبَّار، البغدادي، إمامٌ حافظ، مؤرخ، متقن، زاهد، زثقه الدارقطني والخطيب البغدادي. (توفي سنة ٢٩٠ هـ) (راجع: سير أعلام النبلاء ج١٣ ص٤٤٣-٤٤٤، وتاريخ بغداد ج٤ ص٣٠٦-٣٠٧).

وليسَ يَسْوُون شَيئاً. فقلتُ لهُ: أنتَ لا تُحسِنُ تُصلِّي، قالَ: أنا؟ قُلتُ: أيش [1] تحفظُ عن رسُول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا افتتحتَ الصَّلاةِ ورفعت يديْك؟)).

أنتَ لَزتَ أصحابَ الحديث وقد تعبَّأتَ للفُتيّا، واشتريت كتبًا وحففت شاربك، والآن لَزتَ أصحابَ الحديث فقُلتَ: ليسوا بشيءٍ، وليسَ يسْوُونَ شَيئاً، فالآنَ أنا أسألُكَ: إذا افتَتَحْتَ الصلاةَ ورفَعْتَ يَديْكَ فما الذي تحفظُ عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ذلك؟ لِمَ رَفعتَ يَديْك؟ النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – يقول: ((صَلُّوا كَمَا رأيتموني أُصَلِّي)) [2] صلى الله عليه وسلم، وأيش الذي تحفظُ في هَذا الموطن؟

قال: ((فسكتَ. فقُلتُ: فماذَا تحفظُ عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا وضَعْتَ يَديْكَ على ركبتيك؟ (يعني في الركوع) فسكت: قُلتُ: فأَيُّ شيءٍ تحفظُ عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا سَجَدت؟ فسَكت. قلتُ: مَا لَكَ لا تتكَلَّم؟ ألم أقل لَكَ إنَّكَ لا تُحْسِنُ تُصَلِّي؟ أنتَ إنَّمَا قيل لكَ: تُصَلِّي الغدَاة (أي: الصبح) ركعتين، والظهر أربعاً، فالزم ذا خيرٌ لكَ من أن تذكر أصحابَ الحديثِ، فلَسْتَ بشيءٍ (ولا تُحسِنُ شيئًا))). فهذا المذكورُ ومَثَلُهُ في الفقهاءِ كَمَثلِ مَن تقدَّم ذكرُنا له ممن انتسب إلى الحديث ولم يَعْلَق به مِنهُ غيرُ سماعِهِ وَكَتْبِهِ (أي: كتابته) دُون نظَرِهِ في أنواعِ عِلمِهِ، وأمَّا المحققون فيه المتخصصون به فهُمُ الأئمةُ العُلَمَاء والسَّادَةُ الفقهاءُ، أهلُ الفضلِ والفضيلة والمرتبةِ الرَّفيعَةِ، حَفِظُوا على الأمَّةِ أحكام الرسُول، وأخبرُوا عن أنباءِ التنزيل، وأثبتُوا ناسِخَهُ ومنسوخَه، ومَيَّزُوا مُحكَمَهُ ومتشابِهه، ودَونُوا أقوال النبي – صلى الله عليه وسلم – وأفعالَه، وضبطوا على اختلافِ الأمور

---

[1] أيش: هذه كلمة مما يُؤخذ نحتا من جمل بعينها، فهي مأخوذة من ((أيُّ شيء؟)) فلما كثر دورانها في اللغة جعلوها هكذا: ((أيش تحفظ)) يعني: ((أيُّ شيءٍ تحفظ؟))

[2] جزءٌ من حديث أخرجه البخاري عن مالك الحويرث: كتاب الأذان، باب ((الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة)) (رقم ٦٣١) {الفتح ٢/ ١٣١ – ١٣}، وكتاب الأدب، باب ((رحمة الناس والبهائم)) (رقم ٦٠٠٨) {الفتح ١٠/ ٤٥٢}، وكتاب أخبار الآحاد (رقم ٧٢٤٦) {الفتح ١٣/ ٢٤٤}. ورواه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ((من أحق بالإمامة)) (ج٥ ص١٧٥ بشرح النووي). ورواه أحمد في أول مسند البصريين (رقم١٩٦٢٥) بلفظ ((وصلوا كما رأيتموني أصلي)).

أحواله؛ في يقظته ومنامِه، وقعودِهِ وقيامِهِ، وملبسِه ومركَبِه، ومأكَلِهِ ومشرَبِه، حتى القُلامةُ من ظفره – صلى الله عليه وسلم – ما كان يصنعُ بهَا، والنخامَةُ مِن فيهِ كيفَ كان يَلفظُها – صلى الله عليه وسلم – ؟ وقولُهُ عندَ كلِّ فعلٍ يُحْدِثُه، وكذا عند كلِّ موقفٍ يشهدُهُ، تعظيماً لقدرِهِ – صلى الله عليه وسلم –، ومعرفةً بشرفِ ما ذُكِرَ عَنهُ، وعُزيَ إليهِ، وحَفِظُوا مناقبَ صحابتهِ ومآثرَ عشرتِهِ، وجاءُوا بسيرَ الأنبياء، مقامات الأولياء، واختلاف الفقهاء. ولولا عناية أصحابِ الحديث بضبط السنن وجمعها، واستنباطهَا مِن معادِنهَا، والنظر في طرُقِهَا لبطُلتِ الشريعةُ، وتعَطَّلتْ أحكامُها؛ إذ كانت مسترَجةً من الآثارِ المحفوظة، ومستفادةً من السُّننِ المنقولة، فمن عرِفَ للإسلامِ حقَّهُ وأوجَبَ للدين حُرمَتَهِ أكبر أن يحتقر مَن عظَّمَ الله شأنهُ، وأعلى ماكنهُ، وأظهرَ حُجَّته، وأبَانَ فضيلته، ولم يَرتَقِ بطعنهِ إلى حزبِ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وأتْبَاعَ الوحْي وأوعية الديِّن وخَزَنَةِ العِلْمِ الذين ذَكَرهُم اللهُ تعَالى في كتابهِ فقال: ((والذين اتَّبعُوهُم بإحسَانٍ رَّضِيَ الله عَنهُم وَرَضُوا عنه)) {التوبة: ١٠٠}[١]، وكفى بالمحَدِّثِ شَرفًا أن يكون اسمُهُ مقروناً باسم رُسُول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وذِكرُهُ مُتصلاً بذِكرِ رسُول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ذلك فضل الله يؤتيهِ مَن يشاءُ والله ذُو الفضلِ العظيم))[٢] .

أخرجَ الإمامُ مُسلمٌ في صحيحِهِ بسندِهِ عن عَمْرُو بن أخطبَ – رضي الله عنه – قال: ((صلَّى بِنَا رسُول الله – صلى الله عليه وسلم – الصُّبحَ، فصّعِدَ المنبَر، فخَطَبَنا حتى حضَرَت الظهرُ، فنزَل فصلى، ثُمَّ صَعِدَ المنبَر فمازال يُحدثُنا حتى حَضَرتِ العصرُ، ثمَّ نزَل فصَلَّى، ثم صَعِدَ المنبر فخطبَنَا حتى غربتْ الشمس، فأخبرنا بما كانَ وبمَا هُو كائِنٌ، فأعلَمُنا أحفظُنَا))[٣] .

---

[١] تمام الآية: ((والسابقون الأولونَ مِنَ المهَاجرينَ والأنصار والذين اتبَعُهُم بإحسانٍ رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم)).

[٢] الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ج١ ص٥ – ٦).

[٣] أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة (ج١٧ ص١٦ بشرح النووي)، ورواه أحمد في المسند، رقم (٢١٨١٧).

وهذا الحديثُ فيهِ دلالَةٌ على أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أخبَرَ أصحَابَهُ ودَلَّ الأُمَّةَ علَى ما ينبغي أن تَفعَلَهُ إذا مَا جَاءَت الفتنُ، ووقعتِ المِحنُ، ونزلت النوازلُ، ووَقَعَت بينَ الديار الكروبُ، واستقرَّت فيهَا الخُطوبُ، ولم يَترُكَنا اللهُ تباركَ وتعالى هَمَلاً؛ لأَنَّهُ – جَلَّت قُدرتُهُ – لم يخلقنا عبَثاً، بل خَلقَنَا لِحكمَةٍ، ورَعَانَا وحَاطَنا بعناية، فأرسلَ إلينا رَسُولهُ – صلى الله عليه وسلم – ، وأنزلَ عليه كتابه هدَايَةً ونورًا، ودّلَّنا النبي – صلى الله عليه وسلم – عَمَّا كَان وما يكونُ وما هُو كَائنٌ إلى يوم القيامَةِ، ((فأعلمُنَا أحفَظُنا)).

فالنبيُّ – صلى الله عليه وسلم – الذي عَلَّمَ الأمَّةَ الخِراءَة – يعني كيفَ يقضي الرجُل حاجَتَه، فلا يستقبلُ القِبلَةَ، ولا يستقبلُ الشمس ولا القمر، ولا يستنجي برجيعٍ ولا بعظامٍ... إلى غير ذلك مما علَّمَهُ لنا نبينا الهُمامُ – صلى الله عليه وسلم – ما كانَ ليُعلمَنَا هذهِ الأمُور ثمَّ يَدَعَ ما هُو أجَلُّ وأعظمُ، فدّلَّنَا الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن الضَّلالَ والإضلالَ إنَّمَا هُو بسبب الجهلِ، وأنَّ الهدايَة والنور إنَّمَا هو بسبب العلمِ، ففي الصحيحين عن عبدِ اللهِ بن عَمْرُو – رضي الله عنهما – قَالَ: قَالَ رسُول الله – صلى الله عليه وسلم –: ((إنَّ اللهَ لا يَقبِضُ العِلمَ انتزاعًا ينتزعُهُ مِن الناسِ (أي: لا يُذهِبُ العِلمَ جُملةً مرَّةً واحدَةً فينتزعُهُ مِن خلقِهِ ممن آتاهم اللهُ تباركَ وتعالى إيَّاهُ، فيُصبحُ العالِمُ فإذا هو جاهلٌ وقد مُحِيَ مِن صفحةِ قلبهِ ما كانَ هُنالكَ)، ولكن يقبضُ العِلمَ بقَبضِ العُلَمَاء، حتى إذا لَم يُبْقِ عَالماً اتَّخَذَ الناسُ رُءُوسًا جُهَّالاً(لأنهُ لم يُبقِ عَالماً، فلم يَبقَ إلا الجُهَّال، فانتصبوا لهذا المقامِ الرفيع، واتخذهُمُ الناسُ لذلكَ الأمرِ البدِيعِ)، فسُئِلُوا، فأفتَوْا بغَيرِ عِلمٍ ، فَضَلُّوا وأضَلُّوا)) [1].

عندما ننظُر في منطُوقِ الحديث – في اللفظ الواردِ عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في ظَاهِرِهِ – نجِدُ أنَّ سببَ الضلالِ والإضلالِ هُو أن يتكلَّمَ في دينِ اللهِ تبارك وتعالى مَن لا عِلمَ

---

[1] أخرجه البخاري: كتاب العلم ، باب ((كيف يُقبضُ العلم)) (رقم ١٠٠) {الفتح ١/ ٢٣٤}، وكتاب الاعتصام، باب ((ما يُذكر من ذم الرأي، وتكلُّف القياس)) (رقم ٧٣٠٧) {الفتح ١٣/ ٢٩٥}. ورواه مسلم: كتاب العلم ، باب ((العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان)) (ج١٦ ص٢٢٣ – ٢٢٥ بشرح النووي)

عندَهُ، ... إذا تكلَّمَ في دينِ اللهِ تباركَ وتعالى مَن لا عِلمَ عندَه، ومَن لَيسَ بعَالِمٍ: ((اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوساً جُهالاً فسُئِلُوا فأفتَوا بغَيْرِ عِلمٍ)) ... فكَانَ مَاذَا؟ ... ((فضَلُّوا وأضَلُّوا)).

والمفهومُ الذي هُو بَاطِنُ هذا الظاهِرِ المنظُور - مفهوم الحديث - أن العِلْمَ والعُلَمَاءَ سببُ الهدايةِ والاهتداء. الظاهِرُ في اللفظِ أنَّ الناسَ إذا اتَّخَذُوا رُءُسًا جُهَّالا سُئِلُوا فأفتَوا بغَيرِ عِلمٍ: ضَلُّوا وأضَلُّوا.

ومُقابِلُ هَذا وما يدُلُّ عليهِ: أنَّ الناس إذا سَأَلُوا أهْلَ العِلمِ ومَادَام فيهِم أهلُ العِلمِ وهم الذين يُسألُوانَ فيمَا يعرضُ للناسِ من أمورِهِم - فحينئذٍ تأتي الهدَايَةُ ويأتي الاهتدَاءُ، منطوقٌ ومفهومٌ، مِثْل ما هُو في قولِ الرَّسُول - صلى الله عليه وسلم -: ((مَن يُردِ اللهُ بهِ خيراً يُفَقِّههُ في الدِّينِ)) [1].

تفهَمُ من هذا النصِّ - من هذا المنطوقِ - مفهومًا، وهُو أنَّ مَن لَم يُردِ اللهُ بِهِ خيراً لا يُفقههُ في الدين. وإذاً فَدَاءُ الأمَّةِ الدَّويُّ المُهلِكُ هو الجهل، هذا كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وعن أبي ذرٍّ باسنادٍ صحيح قال: ((تُوفِّي رسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - وما طائرٌ يُحَرِّكُ جناحَيْهِ في السَّماءِ إلا وقد ذَكَرَ لنَا منهُ علماً)) [2].

فالنبي - صلى الله عليه وسلم - الذي صَعِدَ المنبرَ مرَّةً فمَا زَالَ يحدِّثُهُم ويُخبرهُم عن أمُورٍ تَعرِضُ لهُم في مستقبل أيامهم كمسلمينَ تمتدُّ بهم القرونُ إلى أن يُقيمَ الله تبارك وتعالى الساعةَ... النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي حدَّثهُم من يَعدِ صلاةِ الصُّبحِ إلى أذانِ

---

[1] أخرجه البخاري من حديث معاوية بي أبي سفيان -رضي الله عنهما-، كتاب العلم، باب ((من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)) (رقم٧١) {الفتح ١/ ١٩٧}، وكتاب فرض الخمس (رقم٣١١٦) {الفتح ٦/ ٢٥٠}. ورواه الترمذي في (السنن) كتاب العلم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ((إذا أراد الله بعبده خيرا فقهه في الدين)) (رقم ٢٥٦٩) وقال: ((حسن صحيح)). وابن ماجه في (سننه): المقدمة، باب ((فضل العلماء والحث على طلب العلم)) (رقم ٢١٦، ٢١٧)، والدرامي في (السنن)، كتاب الرقائق: باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)) (رقم ٢٥٩).

[2] ذكرهُ ابن رجَب في ((جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم)). حديث: ((إن الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ ...)) (ص٩٧) - ط. دار الفرقان، إربد، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١١هـ = ١٩٩٠م.

المغرب، فحدَّثهُم بما كانَ ومَا يَكُونُ وما هُوَ كائنٌ، ((فأعلمنا أحفَظُنا)): دلَّنَا على مَا إذا أخذنا بِهِ اهتدينا، وصار الأمرُ لدينا على سوائِهِ، وأقَامنَا اللهُ تبارك وتعالى بِهِ على الجَادَّةِ. وكلُّ ذلكَ إذا ما اتَّبَعنَا النبي – صلى الله عليه وسلم – في ذلك.

العلماءُ قد يشتبهونَ بِمَن ليس بعَالِمٍ، وقد لا يستطيعُ الخلقُ أن يُفرقُوا العَالمَ مِن الجاهِلِ. وآفَةُ كُلِّ حرفةٍ وصِنعةٍ أن يدخل فيهَا، وأن يندَسَّ بينَ أهلِهَا مَن ليس منها ولا منهم، هذا هُوَ السُّوسُ الذي ينخَرُ في نُخاعِ كُلِّ حِرفَةٍ، حتى يُذهِبَ ثقةَ الناس بأهلهَا. والعلمُ أشرفُ صناعةٍ وأعظمُ قُربَةٍ إلى ربِّ الأرض والسماوات العُلى، وما تقرَّبَ العبدُ إلى الله تبارك وتعالى بعملٍ إذا أخلصَ النيَّةَ فيه بمثل أن يتقرَّبَ إلى الله ربَّ العالمين بالعِلْمِ، تعلُّمًا وعَملاً وآداءً وتعليمًا، وإقامَةً للحُجَّةِ على خلقِ الله تبارك وتعالى؛ لأنَّهُ لا نبيَّ بعد مُحمد – صلى الله عليه وسلم –.

والأنبياءُ كانوا يَسُوسُونَ بني اسرائيلَ، وكانُوا يَسُوسُونَ الأمَم قبل محمد – صلى الله عليه وسلم –، فلمَّا جاءَ الرسولُ – صلى الله عليه وسلم – ولا نبيَّ بَعدَهُ، فمن الذي يسُوسُ الأمَّة؟ إنَّهُم العُلماءُ، وهُم الواسطةُ بينَ الرسُول – صلى الله عليه وسلم – والأمَّةِ في تبليغِ شَرْعَ الله تبارك وتعالَى، كَمَا أنَّ الرسُول – صلى الله عليه وسلم – هُوَ الواسطةُ بينَ الأمَّةِ ورَبِّهَا في تبليغِ أمرِ ربِّهَا إليهَا.

وإذاً، فعلماءُ هذهِ الأمَّة كأنبياء بني اسرائيلَ (ولكنَّ الخبرَ لا يصحُّ)، ولكن لا يمكنُ بحالٍ أن يكونَ غيرُ نبيٍّ كنبيٍّ أبداً، وإنَّمَا في أنهُم يقومونَ مقامهم في البلاغِ والأداءِ للرسالةِ الشريفةِ التي جاء بهَا مُحمدٌ – صلى الله عليه وسلم – .

قد يشتَبِهُ الأمرُ على النَّاسِ ويختلطُ عليهم التمييزُ بينَ العالِمِ وغيرِهِ، فكيفَ نُفَرِّقُ بينَ العُلماءِ ومَن قد يشتبهُ بهم؟

لابُدَّ مِنَ التفرقةِ بَيْنَ العُلماء والقُرَّاءِ؛ فالقُرَّاءُ – الذين مرَّ ذِكرُهُم في حديثِ عليٍّ رضوانُ اللهِ عليه عندمَا خَاطَبَ عُمَرَ – رضي الله عنه – وهُوَ بأصلِ المنبرِ فَذَكَرَ القُرَّاءَ – وهُم (أي:

القُرَّاءُ) الذينَ يُرتِّلُونَ كلامَ اللهِ تبارك وتعالَى ويقيمونهُ تلاوةً وتجويداً من غير مَا فَهْمٍ لهُ ولا فقهٍ بِهِ.

والقُرَّاءُ أيضاً يمكنُ أن تُطلقُ على معنىً آخر: هُم أولئك المثقفونَ مِن حملةِ الشَّهَادَاتِ ومن غيرهم، أو ممن قد تَعَلَّمَ القِراءَةَ فاقتنَى الكُتبَ فقرأَ، ثُمَّ راحَ يَخبِطُ من غير ضوابِطَ شرعِيَّةٍ، ومن غير ما أصول مرعيَّة، وراحَ يَقُولُ ويتكلمُ ويشقِّقُ الكلامَ من غير ما أصلٍ هنالكَ يئُوب إليهِ، ومن غير ما أساسٍ يَرجِعُ إليه ويَتَّكِئُ عليه، ويتكلمُ فيحسَبُهُ الجَاهِلُ عالماً، ويشتبهُ الأمرُ على الناسِ، ويَقَعُ الضلالُ والإضلالُ كما أخبر النبيُّ - صلى الله عليه وسلم -.

مِن ميزاتِ هَذَا العصرِ تفشِّي القرَاءَةِ فيه، حتى أصبحت القراءَةُ ظاهرةً عامَّة، وصارَ معظمُ الناسِ يستطيعُ أن يقرأ، وصار الجَاهِلُ بالقراءةِ هو المستَثنَى من عمومِ النَّاسِ. واقترنَ بتفشي القراءَةِ كثرةُ الكتبِ التي تُخرِجُهَا المطابعُ، فوقعَ (صحيحُ) البُخاريِّ في أيدي من لا علاقَةَ لهُ بِهِ، وكانَ قبلُ لا يمكنُ أن يقتنيهُ طالبُ علمٍ بغير أن يعرضهُ، وأن يتحمَّلَهُ بطريقةٍ من طُرُقِ التحمُّلِ الثماني المعروفةِ في تَحَمُّلِ العِلم: يسمعُهُ من شيخه، أو يُقْرَأ على شيخِهِ وهو يسمعُ، أو يقرأُهُ هُوَ على شيخِهِ فيصَحِّحَ لَهُ الشيخُ ..... إلى غيرِ ذلكَ من الطرقِ، حتَّى يصِلَ إلى الوِجَادَةِ، وهِيَ التي أمسكَ بهَا جملةُ النَّاسِ اليوم؛ وَجدَ كتاباً في صحيفةٍ فهو يحدِّثُ منه، وهي أدنى طريقةٍ من طُرُقِ التحمُّل عند العلماءِ، وبعضهم لا يعتبرهَا أصلاً، وعند الترجيح لا تقومُ بإزاءِ مَا فَوقَهَا مِن الطرقِ.

وقعَ (صحيحُ) البخاريِّ وبقيَّةُ الكتبِ - كتُبِ السُنَّةِ وكتُبِ أهلِ العِلمِ - وقعتْ - لَمَّا أخرجت المطابعُ سَيْلَهَا وشَلّالهَا - في أيدي الناسِ، وأقبل الناسُ على تلك الكتب يقرؤُونَ. انتشرتْ مُؤلفاتُ علمَاءِ المسلمين المحتوية على سُنَنِ الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وعلى الأحكام الشرعيَّةِ.

ومَع أنَّ هّذا مِن نِعَمِ المَولى جلَّ وعلا، إلا أنَّهُ قد يَكُونُ سبباً للانحراف عنِ الحقِّ، وذلكَ إذا تصدَّى الناسُ - بسبب انتشارِ الكتبِ بينهُم - للنظرِ في النصُوصِ دُونَ معرفةٍ بأصُولِ

النَّظَرِ وقواعِدِ الاستنباطِ، ودُونَ معرفَةٍ بعوَارِضِ الأدلَّةِ وطُرُقِ دفعِ التعارُضِ وأساليب الترجيح [1].

قديماً وقَعَ التَّصحيفُ، وكثيرا ما يَقَعُ التصحيفُ والتحريفُ، وسُوءُ الفَهْمِ واستغلاقُ العبارَةِ؛ لأَنَّ تلكَ الكُتُبِ كُتِبَت بلُغَةِ العِلمِ، ولطلاَّبِ عِلمٍ مُتمَكِّنين. وكانَ العُلَماءُ يختارُون طُلابَ عِلمِهم كَمَا يختَارونَ حُرُمِهم؛ كما يأتي الرجلُ إليه ليخطبَ ابنتهُ أو وليَّتَهُ، فيتأمَّلُ فيهِ مُصْعِدًا ومُصوباً، ثمَّ يسألُ عنهُ ويختبرهُ، كذلك لا يقبلُهُ في حلقتِهِ ولا ينتسبُ إليهِ بعِلمِهِ حتى يَرُوزه [2]. ويختبره.

ومعرُوفَةٌ هي تلكَ القصَّةُ التي تُروَى عن مُحمد بن الحَسَن الشيباني، والذي قال فيه الإمام الشافعيُّ رحمهُ الله: ((ما رأيتُ بادِناً قطُّ ذا فِطنةٍ إلا محمدَ بن الحسن))... عليه الرحمة. كان وجهُهُ كأنما فقِئَ فيه حَبُّ الرُّمانِ، أحمر الوجهِ متماسكاً بَادِناً ... وهو من تلاميذ أبي حنيفةَ الكِبارِ رحمهم الله جميعًا [3]. جاءَ فوقفَ أوَّل موقفٍ على الحلقةِ فأعْجَبَتْهُ، ووجدّهم يأخذون في الأمرِ، يروحونَ ويجيئونَ، فأراد أن ينتسبَ، فقال لهُ واحِدٌ من الطلابِ الجلوسِ ونظَرَ إليهِ: تحفظُ القرآنَ؟ قال: لا. قَالَ: إذًا فاذهب حتى تحفظَ القرآنَ، ثُمَّ ائْتِ. قال: فذهَبتُ فحفظتُ القرآنَ في سبعَةِ أيَّامٍ، ثُمَّ جئتُ فقلتُ: حفظتُ القرآن.

حفظَ القرآنَ في اسبوع! رحمة الله عليه.

كانَ الشأنُ كذلكَ عندمَا كان الناسُ ناساً، وكان العلمُ علمًا، فلمَّا صارَ العلمُ تهويشاً وتهريجاً وشقشقةَ لسانٍ واتساعَ بيانٍ،..... لَّما صار العِلمُ كذلك اندَسَّ فيهِ مَن ليسَ منهُ،

---

[1] راجع في ذلك: ((قواعدٌ غي العامل مع العلماء)) (ص٢٩)

[2] رازَه، يروزه، رَوْزاً: جرَّبَهُ وخَبَرَه. والرَّوْزُ: الامتحان والتقدير. يقال: رُزتُ ما عندَ فلان: امتحنته واختبرته (لسان العرب: روز)

[3] توفي محمد بن الحسن الشيباني –رحمه الله– سنة ١٨٩هـ، ولي القضاء للشريد، وكان الإمام أحمد يقرأ كثيراً من كتبه. وقد أثنى الشافعي عليه، وأكثر في الأخذ عنه. وللذهبي كتاب مفرد في أخباره (له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ج٩ ص١٣٤-١٣٦، تاريخ بغداد ج٢ ص١٧٢-١٨٢، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ج٧ ص٢٢٧).

وَوقَعَ تلبيسٌ عظيم، وصَارَ الناسُ من عَوامِّ الأمَّةِ، وممن لا عِلمَ عندهُ، لا يدري الحق الصُّراحَ من الباطلِ الخالصِ في باطلهِ، واشتبهَ الأمرُ على الناسِ، وتَكلَّمَ في دينِ اللهِ تبارك وتعالى من لا يُحسِنُ الكلامَ فيه، ومَن لا عِلم عنده، ووقعت محنٌ عظيمةٌ، وأريقت دماءٌ غزيرةٌ، وفتنٌ مازالت تتوالى كما مرَّ ذِكرُ ذلكَ في الأحاديثِ، وإن كانت موقوفةً على الأصحابِ رضوانُ اللهِ عليهم فإنَّها مما يتعلق بغيبٍ آتٍ، والغيبُ الآتي لا يُمكنُ أن يتكلَّمَ فيه صحابيٌّ إلا بعلمٍ يأثرُهُ من الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، ولهذا فهذا موقوفٌ له حُكمُ المرفوع؛ لأنَّ الكلام فيه عن غيبٍ آتٍ، ومثلُهُ لا يَصْدُرُ عن الرأيِ المُجرَّدِ، وإذاً فلابُدَّ أن يكونَ قد أخذه من الرسول – صلى الله عليه وسلم–.

تصدَّى الناسُ – بسبب انتشار الكتبِ بينهم – للنظر في النصوصِ دُونَ معرفةٍ بأصولِ النظر وقواعدِ الاستنباط، ودون معرفةٍ بعوارضِ الأدلَّةِ وطُرُقِ دفعِ التعارضِ وأساليب الترجيح.

عن ابن عبَّاسٍ – رضي الله عنهما – قالَ: ((قّدِمَ على عُمَرَ رجلٌ، فجعلَ عُمرُ يسألُهُ عنِ الناسِ (أي: أتى من مصرٍ من الأمصارِ البعيدةِ من بلدٍ بعيدٍ) فقال: يا أميرَ المؤمنين! قد قرأ القرآنَ منهم كذا وكذا (أي: جملةٌ غفيرة، قرأوا القرآن في لسانهم، رحمةُ الله عليهم ورضوانُه، يعني: أنَّهُم حملوهُ حِفظاً) فقلتُ [1]: واللهِ ما أحبُّ أن يسارِعُوا يومَهُم هذا في القرآن هذِهِ المَسَارَعَة (وهذا أمرٌ غريب، لا يحبُّ ابنُ عبَّاسٍ أن يُسارعُوا في حملِ القرآنِ هذه المسارعةَ التي وصفها الرجلُ لأميرِ المؤمنين عمر .... كيف؟) قال: فَزَبَرَني عُمَرُ ثُمَّ قالَ: مَه. فانطلقتُ إلى منزلي مُكتئباً حزيناً. فقلت: قد كنتُ نزلتُ مِن هذا (يعني من أمير المؤمنين) بمنزلةٍ، ولا أراني إلا قد سقطتُ مِن نفسه. فاضّجَعْتُ على فِراشي، حتى عادنِي نسْوَةٌ (مِن) أهلي وما بي وجعٌ، فينما أنا على ذلكَ، قيلَ لي: أجبْ أميرَ المؤمنين. فخرجْتُ فإذا هو قائمٌ على الباب ينتظُرُني، فأخذَ بيَدِي، ثُمَّ خلا بي. فقال: ما الذي كرهتَ مما قالَ الرجلُ آنفاً؟ قُلتُ: يا أمير

[1] القائل: هو عبدالله بن عباس –رضي الله عنهما–.

المؤمنينَ، إنْ كُنتُ أسَأتُ فإني أستغفرُ الله وأتوب إليهِ، وأنزلُ حيثُ أحببتَ. قال: لَتُخْبِرَنِّي. قلتُ: متى ما يسارعُوا (يعني في القرآن) هذِهِ المسارعة يَحْتَقُّوا (يعني، يقولون: أنا أقرأُ منك، ومقّدَّمٌ عليك، ومرفوعٌ عليك) ومتى ما يحتقُّوا يختَصِمُوا، ومتى ما اختَصَمُوا يختلفُوا، ومتى ما يَختلفُوا يقتتلوا. قال: لله أبُوكَ، لقد كُنت أكتُمُهَا الناسَ حتى جئتَ بهَا)) [1]. فأقرَّها أمير المؤمنين – رضي الله عنه –.

العملَ العملَ، فهو ثمرةُ العلم في الحقيقة، ولا علمَ يقومُ في ميزانِ الشرعِ بغير عمل؛ فابنُ عباس – رضي الله عنهما – خلفَ من الناسِ وعليهم المسارعةَ في القرآنِ دُونَ فقهٍ وفهمٍ؛ لأنَّ المسَارعَةَ إلى ذلكَ قد تؤدِّي إلى انحرافٍ عن الطريق المستقيم، وعن الحق؛ لأنَّ الخوارج كانوا يقرأُونَ القرآنَ، ولكنهم لم يكونوا أهلَ فهْمٍ وعِلمٍ، يقولُ الرسُولُ –صلى الله عليه وسلم– فيهم: **"يقرأونَ القرآنَ لا يُجاوزُ حناجِرَهُم"، وفي رواية: "لا يجاوزُ تراقِيَهُم"** (والحديثُ في الصحيحين) [2].

وهذهِ شهادةُ رسُولِ الله –صلى الله عليه وسلم– يأخذونَ أنفسهُم بقراءة القرآن وإقرائه، وهم لا يتفقهونَ فيهِ، ولا يعرفونَ مقاصدَهُ، يعني ليس لهم حظٌّ إلا مرور القرآنِ على ألسنتهم، لا يصلُ إلى حلوقهم، فضلاً عن أن يصلَ إلى قلوبهم؛ لأنَّ المطلوبَ هو تعقُّلُ القرآنِ وتدبُّرُهُ بوقُوعِهِ في القلبِ واستقراره فيه.

---

[1] رواهُ عبدُ الرازق في ((المصنف)) (ج١١ ص٢١٧)، (رقم ٢٠٣٦٨)، والفسوي في ((التاريخ)) (ج١ ص٥١٦)، والذهبي في ((سير أعلام النبلاء)) (ج٣ ص٣٤٨ – ٣٤٩)، وقال محققه: ((رجاله ثقات))

[2] أخرجه البخاري في مواضع كثيرة من صحيحه، ومنها كتاب: المناقب، باب ((علامات النبوة في الإسلام)) (رقم٣٦١٠، ٣٦١١) (الفتح ٦/ ٧١٤-٧١٥)، كتاب: استتابة المرتدين، باب ((من ترك قتال الخوارج للتألف...)) (رقم ٦٩٣٣، ٦٩٣٤) {الفتح ١٢/ ٣٠٣} كتاب التوحيد، باب ((قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتهم وتلاوتهم..)) (رقم ٧٥٦٢) {الفتح ١٣/ ٥٤٥}. وأخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم ومن يُخاف على إيمانه)). (ج٧ ص١٥٩-١٦٨-شرح النووي).

هذه الظاهرةُ -وهي تفَشِّي القراءة- أنتجت وجودَ طائفةٍ من الناسِ، سَمِّهِم القُرَّاء: فئة من طلبة العلمِ أو المثقفينَ، قرأوا نُتفًا من العلمِ، وهم غير فقهاء بذلك العلم، يُجيدون القراءة، ويقرأونَ ما يُكتبُ لهم .. إلى غير ذلك من تلك الأشياء.

ويُروى عن أبي هريرة -بإسنادٍ ضعيف- فيما يرفعُهُ إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم-: "سَيَأتي على الناسِ زمانٌ يكثُرُ فيهِ القُرَّاءُ، ويقلُّ فيهِ الفقهاءُ، ويُقبضُ العلمُ، ويكثُرُ الهَرْجُ"[1].

وقد ظهرَ مصداقُ هذا الحديث في زماننَا، فقلَّ الفقهاءُ العارفونَ بما جاءَ عن الله ورسُولِهِ -صلى الله عليه وسلم-، وكثُرَ القُرَّاءُ في الكبار والصغارِ والرجالِ والنساءِ؛ بسبب كثرةِ المدارسِ وانتشارها.

لابُدَّ أن نُمَيِّزَ بينَ المثقف ثقافةً دينية والعَالِمِ .. العَالِمُ له أصولُهُ وأسُسُهُ التي يرتكزُ عليها، وأمَّا الذي هو قد تحصَّلَ على بعضِ النُّتَفِ من بعض القراءاتِ المبْتَسَرَةِ أو المنظَّمَةِ من غير ما عَودَةٍ إلى الأصُولِ المرعِيَّة والقواعِد الشرعيَّة، والجلُوسِ في حِلَقِ العلماءِ الكبارِ ومزاحمتهم بالرُّكب، ولسؤال عمَّا أشكلَ، ومحاولةِ الوصول إلى الصوابِ عند الإعسَارِ،... كلُّ ذلكَ عندما يُفقَدُ، ويتصدى للكلامِ في الدين مَن لم يحصِّلهُ، حدِّث عن الفوضى ولا حَرج.

قومٌ انتموا إلى العلم في الظاهِرِ، ولم يتقنوا منه سوَى نَزْرٍ يسير، أوهَمُوا به أنهم علماء فُضلاء، ولم يَدُرْ في أذهانهم قطُّ أنهم يتقرَّبُون به إلى الله؛ لأنهم مارأوا شيخًا يُقتدَى به في العلم، فصارُوا هَمَجاً، غايةُ المرْءِ، منهم: أن يحصِّل كتباً مُثَمَّنَةَ يخزُنُهَا وينظر فيها يومًا، فيصحِّفُ ما يُوردهُ ولا يقرِّره، وهو أمرٌ قديم، فقد قالَ واحدٌ مِن أولئك الرواةِ قديماً -هو من قبيلة يُقالُ لها: عَنَزَة، فهو عَنَزِيٌّ- قال: نحنُ قومٌ لنا شرفٌ. قالوا: وما ذاك؟ قال: صلى الرسولُ -صلى الله عليه وسلم- إلينا (أي: جعلهم قِبْلَةً؛ لأن قبيلتهم رُبَّمَا كانت مضاربُهَا وديارُهَا بضِدِّ القِبْلَة)... قالوا: كيف ذلك؟ قال: صَلَّى -صلى الله عليه وسلم- إلينا، فنحنُ

---

[1] أخرجه الطبراني في ((الأوسط))، والحاكم في ((المستدرك))، وصححه، ووافقه الذهبي، وضعفه الشيخ الألباني في ((ضعيف الجامع الصغير)) ج٣ ص٢٢٥ (رقم٣٢٩٥) {ط. المكتب الاسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م}. وذكره في السلسلة الضعيفة ج٨ ص١٩١ (رقم ٣٧١٢) {ط. مكتبة المعارف، الرياض ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م}.

قومٌ لنا شَرَفٌ. قالوا: كيفَ؟ قال: ألم تسمعوا الحديث: ((صلَّى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى عَنَزَة)) [1].

والمرادُ بالعَنَزَة: تلكَ العصَا، لها زُجٌّ [2] كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يجعلُهَا سُترةً بين يديهِ، فصَحَّفَ الرجلُ، وجاءَ آخرُ فصحَّفَ المعنى، ورَوَى بالمعنى مُصَحَّفاً، فأخَذَ تلكَ العصَا -التي جعلها النبي صلى الله عليه وسلم سترةً فصلَّى إليها لاتجاه القبلة- جعل هذه العَنَـزَةَ عَـنْـزَةً (تلك الدابة الحيوانُ التي تَدُبُّ على الأرض، تلك العَـنْزَة المعروفة) جعلها عَـنْزَة [3]، ثُمَّ أخذها آخر فنسي فروَى بالمعنى فقال: ((صلَّى النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- إلى شاة)).

والعلِمُ الفقيهُ ليس كهؤلاء، وإنما هو دارٍ بأصُولِه، عارفٌ بمصادِره. والعلمُ -في الحقيقة- نور، وهو ككلِّ صِنْعِةٍ لابُدَّ لها مِن أدوات ومعاناةٍ وأسباب. العلمُ لا يعطيك بعضهُ حتى تعطيهِ كُلَّك، وأنت -مِن إعطائهِ إياكَ بَعْضَه بعدَ إذ تُعطيهِ كُلَّكَ- على خطرٍ، يعني يمكنُ أن يُعطيكَ، ويمكن ألا يُعطيك؛ لأنَّ هاهُنا شِقَّاً آخر، وهو ذلك الجانب الوَهبيُّ، لا الكَسْبيُّ، الذي يَهَبُ اللهُ ربُّ العالمينَ فيه من يشاءُ ما يشاءُ مِن نُورِ هذا العلم،

---

[1] رواه البخاري، كتاب الصلاة، بابٌ ((الصلاة في الثوب الأحمر)) (رقم ٣٧٦) {الفتح ١/ ٥٧٨-٥٧٩}. من حديث عون بن أبي حُجيفة، عن أبيه قال: ((رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قبَّةٍ حمراء من أدَم، ورأيت بلالاً أخذ وَضُوءَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ....)) الحديث، وفيه: ((ثم رأيت بلالاً أخذ عنزة فركزها، وخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- في حُلةٍ حمراء مُشمرا، صلى إلى العنزة بالناس ركعتين ...)) ورواه بنحوه في كتاب اللباس، بابُ ((التشمير في الثياب) (رقم٥٧٨٦) {الفتح ١٠/ ٢٦٧}. وأخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ((سُترة المصلي)) (ج٤ ص٢١٨-٢٢٠ بشرح النووي). وفيه: ((فصلى إلى العنزة بالناس ركعتين)) ورواه أحمد في المسند رقم ١٨٠١٢) نحوا من رواية البخاري، وفيه: ((فصلى إلى العنزة الظهر أو العصر ركعتين)) ورواه برقم (١٨٠١٣) بلفظ: ((أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صلى إلى عنزة أو شبهها والطريق من ورائها)).

[2] الزُجُّ: الحديدة التي تُركبُ في أسفل الرمح، وتُركزُ به في الأرض (لسان العرب -زجج).

[3] القصة ذكرها الخطيب البغدادي في كتابه ((الجامع لأخلاق الرواي وآداب السامع)) (ج١ ص٢٩٥-٢٩٦)

فيقذفهُ الله ربُّ العالمينَ في قلبه، ويجعلُهُ مستقراً فيه. فاللهمَّ عَلِّمنا ومُنَّ علينا بالعلم والعمَلِ ياربَّ العالمين.

قال عبدالله بن المبارك: ((لعلَّ الكلمة التي أنتفع بها لم أسمَعهَا بعد)) . وهذا قانونٌ في الطلب. وكذلك يقولُ أحدهم -هو الإمام أحمد بن حنبل عليه الرحمة: "أنا أطلبُ العلم إلى أن أدخلَ القبر" [1].

فعلينا أن نميز بين العلماء والقراء، وعلينا أن نُمَيِّزَ بين العُلماءِ والمفكرين... فلانٌ مفكرٌ إسلاميٌ، ولهُ كتبٌ كثيرةٌ، وآراءٌ منشورة، وقضايا مشهورة، ويتكلم في الدين، فهذا مفكرٌ إسلامي.

ونتيجة لالتقاء الثقافتين الاسلامية والغربية، والصراع الحادث بينهما مع اتساع جبهات الالتقاء والصراع الفكري: نشأ في المجتمعات المسلمة طائفةٌ من الأخيار الذين يفهمون الإسلام فهماً عاماً، يعرفونَ التصورَ الإسلاميَّ -كما يقولون عنه- للكون والإنسان والحياة، ويَطَّلَعُونَ على مُجملِ القضايا التي تُعَدُّ مَفرقَ طُرقٍ بين الإسلام والأديان والمذاهب المعاصرة الأخرى، مثل: قضية المادية، وفصلِ الدِّينِ عن الحياة، والملكية الفردية، والنظام الاقتصادي بشكلٍ عام، والنظام الاجتماعي، مع اطِّلاعٍ على المذاهب المعاصرة، ودراسة لمنهج تفسير التاريخ ... إلى غير ذلك [2] .

هؤلاء من المثقفين، ومن المفكرين، وهم -وإن كانوا يجهلون هَمَّ نشر الدين، ويملكون وعياً بالقضايا المستَجَدَّة، ويطَّلعُون على الحضارة الغربية، وأَوْجُهِ نقدِها- لكنهم ليسُوا من عُلماءِ الشريعة، وإنَّمَا هُم مفكرونَ -على فرض صحَّةِ هذا التعبير- وحكماءُ يُسْتَـنَارُ برأيهم، ويُستَفادُ مِن علمِهِم في الجوانب التي أجادُوا فيها، ولا يُخلطُ بينَ تَصَدِّيهم -باعتبارهم

---

[1] رواه الخطيب البغدادي في ((شرف أصحاب الحديث)) (ص٦٨)

[2] راجع في ذلك: ((قواعد في التعامل مع العلماء)) (ص٣٧)

مفكرين- وبينَ العلماء، فهؤلاء المفكرون لهم مكانتهم، وبعضهم نفع الله تبارك وتعالى به، ولكنهم -مع ذلك- لم يُغْـنُوا عن العلماء شيئاً، إلا في حُدُودِ عِلمهِم وقُدراتهم.

وَوُجِدَ أيضاً طائفةٌ مِن المثقفين من الأخيار الصالحين تخصصُوا في الطبِّ والهندسَةِ والكيمياءِ والعُلوم المسَمَّاة بالعلوم الإنسانية، وغير ذلك. وهؤلاء أيضا -وإن حُمِدَ لهم تخصـصُهُم في مثل هذه العلوم، وصاروا مَرجَعاً- إلا أنَّهُم غيرُ مختَصِّين في العلوم الشرعية، وهم -في الاصطلاحِ العلميِّ والشرعيِّ -مِن جُمهور المسلمينَ وعَوامِّهم؛ الذين يجبُ أن يكونوا وراء العلماء، ويُحْظَرُ عليهم أن يتكلمُوا في دين الله تبارك وتعالى استقلالاً.

وما وقعت الفتنُ التي تُعاني منها الأمة اليومَ إلا عندمَا فُتحَ البَابُ أمامَ كلِّ مَن مَلكَ لساناً ليتكلَّم، وصَدَقَ فينا ذلك المثلُ العَامِّيُّ القديم: ((كل من قرأ كتاباً بتعريفة [1]، عَمَل فيها أبا ظريفة، واعترض على الشافعي ومالك وأبي حنيفة)).

هؤلاء يجب أن يَرجعُوا للعلماء في أمور الشريعة، ويكُونوا عَوناً لهم في شرحِ واقع تخصصاتهم؛ فالطبيبُ يشرحُ الأمُورَ الطبية، والاقتصاديُّ يشرحُ الجَوانبَ الاقتصاديَّة العصرية للعلماء حتى يستطيعُوا الفُـتْيَا. وأمَّ أن يختصَّ هؤلاء بالفتيا استقلالاً: فهذا ضلالٌ كـبير.

كلامُ هؤلاء المفكرين والمثقفين يجب أن يكون محْكُوماً بالشرع، وأمَّا إذا بَنَى هؤلاء المثقفون والمفكرون كلامَهُم في أمور الشريعة -وأحوالِ الأمَّة العامَّة- على أساسٍ مِنَ العُقولِ والأهْوَاء، وإطلاقِ القول بالمصالح دُونَ نظرٍ في الآثار- فإنهم أشبه ما يكُونونَ بأهلِ الكلامِ الذين ظهروا في الأمَّة، وكانوا بلاءً ووبالاً عليها. فأهلُ الكلام أهلُ بِدَعٍ وزَيغٍ، ولا يَعُدُّونَ عند الجميع في جميع الأمصار من طبقات العلماء. وكذلك المفكرون والمثقفون إذا ما جانبوا وابتعدوا عن العلماء واستقلُّوا بالكلام في الدينِ على حسَبِ الرأي والأهوَاءِ يكونونَ كَأهلِ الكلامِ في المتقدمين، بلاءً ووبالاً على أمَّةِ مُحمدٍ -صلى الله عليه وسلم-.

---

[1] التعريفة: وهي العُمْلَة المصرية التي ألغيت، ولم تكن لها قيمة.

غايةُ ما عندّ هؤلاءِ المتقعرين من العلمِ، مِن المتكلمين السابقينَ -ويُشبِهُهم مَن ابتعدَ عن العُلَماءِ الشَّرعِيِّينَ الراسخينَ المُتمَكِّنينَ، وأفتَى في دين الله تبارك وتعالى على حَسَب هَواهُ وبرَأيهِ، وعلى حسَب تخصصهِ، وتخَصُّصُهُ بعيدٌ عَن شرعِ الله رب العالمين -يكونُ مَثَلُهُم حينئذٍ كأهلِ الكلامِ، وغايةُ ما عِندَ هؤلاءِ المتقعرين عباراتٌ وشقاشقُ لا يَعْبأُ اللهُ بهَا شيئاً، يُحرِّفونَ بهَا الكلِمَ عَن مواضِعِهِ. وقديماً قالَ الإمامُ ابن القيم عليه الرحمة:

العلمُ قـال اللهُ قـالَ رسُـولهُ قال الصحابة ليس بالتمويهِ
ما العلمُ نَصْبَكَ للخِلافِ سَفاهَةً بين الرسُولِ وبينَ رأي فقِيهِ

هذا هُوَ العِلمُ الشرعيُّ الذي يَجعلُ الله تبارك وتعالى فيهِ العِصمةَ.

وينبغي أيضاً أن تُفرِّق بينَ العُلَماءِ والوُعَّاظِ والخطباء[١]؛ فقد ظهَر في الصَّدر الأوَّلِ للتاريخ الإسلاميِّ طائِفَةٌ تُسَمَّى ((الوُعَّاظ)) أو ((القُصَّاص))، وكانوا في البدايةِ مِن العُلماءِ والفقهاء، ثُمَّ تَطوَّرَ الأمرُ حتى صَارَ يَعِظُ النَّاسَ مَن ليسَ بعالمٍ ولا فقيه.

كانَ عبدُالله بنُ عُمر يجلسُ في مَجلس عُبَيْد بن عُمَير القاص [٢] . وكان عُمر بن عبدالعزيز يحضرُ مجلسَ القاصِّ مَعَ العَامَّةِ بعدَ الصلاةِ، ويرفعُ يديه إذا رفع. حتى إذا خَسَّتْ هذهِ الصناعةُ تعرَّضَ لها الجُهَّالُ، فأعرضَ عَن الحضور المتميِّزُونَ مِن الناس، وتعَلَّقَ بالقصَّاصِ والوعَّاظِ العوامُّ والنساءُ، ومازال قائماً إلى يوم الناسِ هذا.

---

[١] راجع في ذلك: ((قواعد في التعامل مع العلماء)) (ص٤٠)

[٢] عُبيد بن عُمير بن قتادة الليثي المكي، الواعظ المفسر. ولد في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحَدَّث عن طائفة من الصحابة -رضي الله عنهم- كعمر، وعلي، وعائشة، وابن عباس، وكان من ثقات التابعين وأئمتهم. وهو أول مَن قصَّ على عهد عمر بن الخطاب. وتوفي سنة ٧٤ هـ، (سير أعلام النبلاء) (ج٤ ص١٥٦-١٥٧)، (تهذيب الكمال ٧/ ٧١)

لا يلزمُ من كون الشخص قاصَّاً أو واعظا يعظُ الناسَ ويتكلم في الأمور العامَّةِ في دين الله تبارك وتعالى، أو خطيباً مُفوَّهاً: أن يكونَ عالماً،؛ ليسَ بالضرورة لزاماً أن يكونَ ذلكَ كذلكَ، وإنَّمَا يُمكنُ أن يكونَ خطيباً مؤثراً مُفوَّهاً، ويمكنُ أن يكونَ واعظاً بليغاً مؤثراً، ولكنه في الوقت ذاته لا يكونُ عالماً؛ فكم من واعظٍ يسلبُ قلوبَ الناسِ بحُسْنِ حديثِهِ وحلاوةِ منطقِهِ، وليس لهُ مِن العلمِ حظٌّ ولا نصيبٌ؛ إذ ليسَ العِلمُ بالقدرة على الكلام، وبالقدرة على شدِّ مشاعِرِ الناس.

يقولُ ابن مسعودٍ في الحديث -وهو صحيحٌ موقوفٌ عليه- : "إنَّكُم في زمانٍ، كثيرٌ علماؤُهُ، قليلٍ خطباؤُه (هذا في زمن الصحابة -رضي الله عنهم-) وإنَّ بَعدَكُم زماناً، كثيرٌ خطباؤُهُ قليلٌ عُلماؤُه" [1].

العَالمُ قد يكونُ عَييًّا لا يُحسنُ الكلامَ. نسأل الله أن يُطلقَ ألسنتنا بالخير. وقد يكونُ العالمُ بطبعِهِ قليلَ الكلامِ غيرَ قادرٍ على الخطابة، وقد يكونُ من العوامِّ مَن هُو بليغُ اللسانِ، يقلبُ الألفاظ كيفَ شاءَ وهُوَ من العوام.

العلماءُ قِلَّةٌ، والمتكلمون كثير. قالَ مُجاهِدٌ رَحمهُ الله: "ذهبَ العلماءُ فلم يبقَ إلا المتكلمون، وما المجتهدُ فيكم إلا كاللاعب فيمن كان قبلكم" [2]، يعني: كلُّ مَن ملكَ لساناً يخبطُ بهِ بينَ شِدقَيه يتخلل به كما تتخلَّلُ البقرة بلسانها في كل منافقٍ عليم اللسان، كما قال النبي العدنان -صلى الله عليه وسلم-[3].

---

[1] جزءٌ مِن حديث موقوف على ابن مسعود: أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (ج٢ ص٣٨٢) رقم(٣٧٨٧) ، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (ج٩ ص١٠٨) رقم (٨٥٦٦، ٨٥٦٧)، (ج٩ ص٢٩٨) رقم (٩٤٩٦). ورواه البخاري في ((الأدب المفرد)) رقم (٧٨٩)، وأبو خثيمة في ((كتاب العلم)) (ص١٠٩).

[2] رواه أبو خثيمة زهير بن حرب في كتابه العلم (ج١ ص١٩) (رقم ٦٩).

[3] روى الترمذي في سننه، كتاب الأدب، باب ((ماجاء في الفصاحة والبيان)) (رقم ٢٧٨٠) عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يبغض البليغ من الرجال، الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة)) (قال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه). ورواه أبو داود في سننه كتاب الأدب (رقم ٤٣٥٢) أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله عز وجل =

لا يعني هذا أن كل الوعاظ كانوا مرذولين، ولا كلَّ الخطباء لم يكونوا علماء؛ فهذا الخطيب البغداديُّ [1] وهذا الخطيب التبريزي [2]، رحمة الله عليهما. وهذا أبو الفرج ابن الجوزيِّ رحمةُ اللهِ عليه، هو أكبرُ واعظ في تاريخ أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، وتأثيرُ تأثيرُه [3].

يَبقى معنا شيءٌ يسيرٌ إن شاء الله تبارك وتعالى، هذا الشيءُ هو من آثارِ العلمِ الصحيح. انظر كيف يستنبطُ العلماءُ وسطِ الفتنِ، وفي وسطِ الكرُوبِ والمحَنِ؟ ماذا نفعل إذا نزلت بنا نازلَةٌ ليسَ لهَا مِن دُونِ اللهِ كَاشفة، ووقع بديارنا ما وقَعَ من بلاءٍ وابتلاء، وما سِوَى الله ربِّ العالمينَ له مِن دافِع؟ ما الذي ينبغي أن يُصنَع؟

=يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل البقرة بلسانها)). وروى أحمد في مسنده (١/ ٢٢) (رقم ١٤٣) عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان)).

[1] هو: أبو بكر أحمد بن على بن ثابت بن أحمد بن مهدي، البغدادي، المتوفى (٤٦٣هـ). وصفه الذهبي بقوله: ((الإمام، الأوحد، العلامة، المفتي، الحافظ، الناقد، محدث الوقت)). وقال عنه ابن ماكولا: ((كان آخر الأعيان ممن شاهدناه، معرفة، وحفظا، واتقانا، وضبطاً لحديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وتفننا في علله وأسانيده، وعلما بصحيحه وغريبه....)). وله تصانيف كثيرة؛ عدها السمعاني ستة وخمسين مصنفا، وأغلبها في علوم الحديث النبوي، ومن أشهرها: ((تاريخ بغداد))، ((شرف أصحاب الحديث))، ((الجامع لأخلاق الرواة وآداب السامع))، ((الكفاية في معرفة أصول الرواية))، وغيرها (راجع: سير أعلام النبلاء ج١٨، ص٢٧٠-٢٩٧، الأنساب للسمعاني ٥/ ١٥١).

[2] أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن حسن بن بسطام، الشيباني، الخطيبُ، التبريزي، أحد أئمة اللغة الأعلام، المتوفى (٥٠٢هـ). له من المصنفات: ((شرح الحماسة)) و ((شرح ديوان المتنبي)) وغيرهما. (راجع سير أعلام النبلاء، للذهبي ج١٩/ ٦٩، البداية والنهاية لابن كثير ج٦، ص٦٦٧-٦٦٨، معجم الأدباء لباقوت الحموي ج٢، ص٢٥-٢٨).

[3] هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي. ينتهي نسبه إلى القاسم ابن محمد بن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-. نعته الذهبي بـ ((الشيخ الإمام العلامة، الحافظ، المفسر، شيخ الإسلام، الواعظ،..... كان رأسا في التذكير -أي: الوعظ- بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق، بديها ويسهب، ويُعجب، ويُطرب، ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله. فهو حامل لواء الوعظ والقيِّم بفنونه، مع الشكل الحسن والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة. وكان بحرا في التفسير، علامة في السير والتاريخ، موصوفا بحسن الحديث، ومعرفة فنونه، فقيها، عليما بالاجماع والاختلاف، جيد المشاركة في الطب، ذا تفنن وفهم وذكاء وحفظ واستحضار، وإكباب على الجمع والتصنيف ...)). قال: وكان ذا حفظ عظيم وصيت بعيد، يحضر مجالسه الملوك والوزراء، وبعض الخلفاء والأئمة الكبراء، لا يكاد المجلس ينقص عن ألوف كثيرة)). وقد أطنب العلماء في ذكر فضائله. وكان رحمه الله كثير التصنيف ومن أشهر كتبه ((زاد المسير)) في التفسير، و((المنتظم)) في التاريخ، و((الموضوعات))، و((تلبيس إبليس))، و((صفة الصفوة)). مات سنة (٥٩٧هـ) (راجع: سير أعلام النبلاء ج٢١، ص٣٦٥-٣٨٤).

يقُولُ الإمامُ ابنُ القَيِّم: ((تأمَّلْ حِكمةَ الله تعالى في مَحقِ أموال المُرابينَ، وتسليطِ المُتلِفاتِ عليهم، كما فعلوا بأموال الناس ومَحَقُوهَا عليهم، وأتلفُوها عليهم بالربَا، جُوزُوا إتلافاً بإتلاف، فقَلَّ أن تَرى مُرابياً إلا وآخِرَتُهُ إلى مَحْقٍ وقِلَّةِ حَاجَةٍ)).

أصحابُ المزارع الذين كانوا يَجعلونَ لِفراخِهم من الغذاءِ ما يُؤذِي كلَّ حيٍّ على ظهر الأرض، مَحَقَ اللهُ ربُّ العالمينَ ما كانَ لهم، واستأصلَ اللهُ ربُّ العالمينَ أموالهم في لحظةٍ واحدَةٍ، في طرفة العين أو كانتباهتها.

ثمَّ قالَ ابن القيم: ((وتأمَّل حكمتهِ تعالى في تسليطِ العدُوِّ على العباد إذا جارَ قويُّهُم على ضعيفهم، ولم يُؤخَذ للمظلومِ حقُّهُ من ظالِمِه، كيفَ يُسَلِّطُ اللهُ عليهم مَن يفعلُ بهم كفِعلَتِهِم برَعاياهم وضعفائهم سواء؟ وهذه سُنَّةُ اللهِ تعالى منذُ قامت الدنيا إلى أن تُطوى الأرضُ ويعيدُها كما بدأَهَا)) [1].

وفي المحنة، وفي الفتنة، يصيرُ العلماءُ -عليهم الرحمة- مصابيحَ الدُّجَى، ((واقتدِ بِمَن قد مَاتَ، فإنَّ الحيَّ لا تُؤمَنُ عليهِ الفتنةُ)) [2]. ولكن لا نقدِّسهُم، ولا ننزلهم فوقَ منازلهم، وإنَّما هم كالنجمِ بالليل نقتدي به -إذا ما أردنا أن نذهب إلى بيتِ الله تبارك وتعالى الحرام- ونعرفُ الاتجاهات مِن أجل تحديد القبلة، ونسيرُ في ضوء النجم بالليل ونهتدي بهِ ونسترشِدُ، حتى إذا رأينا الكعبَةَ كِفاحاً وصِرْنَا مَعَهَا وجهاً لحَجَرٍ أسعَد، حِينئذٍ نستغني عن النجم. وكذلك العلماءُ، هُم يوصِّلُوننا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- .... تَدَبَّر كلامَ ابن القيمِ رحمةُ اللهِ عليه، لتعرفَ ثمرَةَ العِلمِ كيفَ تكون؟ يقول: ((وتأمَّلْ حكمته تعالى، في

---

[1] مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢/ ١٧٧).

[2] جزء من أثر مروي عن ابن مسعود -رضي الله عنه-، أخرجه ابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (٢/ ٩٧). وانظر: ((هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة)) للحافظ ابن حجر (١/ ١٤٣)، رقم (١٩١) {ط. دار ابن القيم، ودار ابن عفان، القاهرة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م}. ولفظ ابن مسعود: ((مَن كان مستناً فليستنَّ بمن قد مات، فإن الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ كانوا أفضل هذه الأمة؛ أبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه. فاعرفوا فضلهم، واتبعوا على آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)).

أن جَعَلَ ملوكَ العبادِ وأمراءَهُم وولاتهم مِن جنسِ أعمالهم))... ملوكُ وأمراءُ وحُكَّام الناس هم من جِنسِ أعمالِ الناسِ، "ولا يظلمُ ربُّكَ أحداً" [الكهف: ٤٩].

قال: ((بلْ كَأنَّ أعمالهم ظَهَرتْ في صُـوَر وُلاتِهم وملوكهم))... كَأنَّه أخذهَا مِن مقُولَةِ عُمَر بن عَبدِ العزيز قديماً: ((إن أردتم حاكِماً كعُمَر فكُونوا رَعيَّةً كرَعِيَّةِ عُمر)).

قال: ((فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عَدَلُوا عَدَلَت عليهم، وإن جَارُوا جَارت ملوكهم ووُلاتُهم، وإن ظَهَر فيهم المكرُ والخديعةُ فـوُلاتُهُم كذلك، وإن مَنعُوا حقوق الله لديهم وبخِلُوا بهَا مَنَعت ملوكهم ووُلاتُهم مالهُم عندهم مِن الحقِّ ، وبخِلُوا بهَا عليهم، وإن أخذُوا مِمن يستضعفونَهُ ما لا يستَحقُّونه مِن مُعاملاتهم (يعني تظالَـمَ الناسُ فيمَا بينهُم، ولم يَعْـدِلُوا وجَارُوا) أخَذَت الملوكُ ما لا يستحقُّونَه، وضَرَبَت عليهم المُكُوسَ (أي: الضرائب) والوظائف. وكلُّ ما يستخـرجُـونَهُ مِن الضعيفِ يستخرجُهُ الملوكُ مِنهم بالقوَّة، فعُمَّالُـهُم ظَهَرَت في صُوَر أعمالهم)) [1].

نَسألُ اللهَ جَلَّت قُدرتُه، وتقدَّسَت أسمَاؤُهُ، أن يَغفرَ لنا وأن يرحمنا، وأن يجعَلَنا جميعاً مِن العُلماءِ العاملينَ الفاهمينَ المخلصينَ، الدَّاعِينَ إلى الله تبارك وتعالى على بصيرة. وصَلَّى الله وسَلَّمَ على نبينا مُحَـمَّدٍ، صَلَّى اللهُ عليهِ وعَلى آلهِ وسَلَّم.

---

[1] انتهى كلام ابن القيم رحمه الله من كتابه: متاح دار السعادة (٢/ ١٧٨).